

د. عبد الرحمن بن صالح العثماوي

في وجدان القرية

□ رواية □

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العشماوي، عبدالرحمن

في وجدان القرية. / عبدالرحمن العشماوي - ط ٢

. - الرياض، ١٤٢٤هـ.

٢٠٨ ص؛ ١٤ × ٢١ سم

ردمك: ٣ - ٤٩٤ - ٤٠ - ٩٩٦٠

١- القصص العربية - السعودية أ- العنوان

١٤٢٤/٧١٧٥

ديوي ٠٣٩٥٣١، ٨١٣

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٧١٧٥

ردمك: ٣ - ٤٩٤ - ٤٠ - ٩٩٦٠

الطبعة الثانية

١٤٤٥هـ / ٢٠٠٤م

حقوق الطباعة محفوظة للناسر

رُ نَا ر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



عبد الرحمن بن صالح العشماوي _____ في وجدان القرية

* بوابة القرية:

وقف أمامها كاسف البال حزينا، يراها بعين ذكرياته عالماً آخر، له ملامحه الخاصة، ونكهته الخاصة، إنه يراها في سكونها الشجيّ تحيط بها هالةٌ من الأعوام المليئة بالأحداث والمواقف والذكريات، ونظر عن يمينه وشماله والتفت إلى ورائه، فرأى صورة أخرى، صورة ذات ضجيج وبريق وحركة دائبة لاهثة، عشرات العلب الإسمنتية تتناثر هنا وهناك، وعشرات الصناديق الحديدية تتطلق سريعة عبر الخطوط «الإسفلتية» في كل اتجاه، إنها صورة «القرية» الجديدة بمنزلها، وسياراتها الجديدة، وطرقها المعبّدة، ولوحاتها الكهربائية التي تخطف ببريقها الأبصار، ها هي ذي أعمدة الكهرباء تمتد عبر الأودية والجبال حاملةً على أكتافها «أسلاك الكهرباء» التي توصل إلى بيوت القرية المترامية وسيلة من وسائل رفاهيتها.

أسلاك الكهرباء؟ يا لها من سياج يكبل براءة القرية، ويرهق كاهل طفولتها العذبة... حتى العصافير، تقف على هذه الأسلاك وقوفاً جامداً يسلبها عذوبة التغريد.

ماذا أصابك أيتها القرية الحبيبة؟..

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العشاوي

سؤال جافٌ حزين، قفز من فمه حين عاد ببصره إلى
بيوت القرية القديمة التي تلتصق ببعضها في تلاحم فريد،
وكأنها تستعيد بالله من صخب هذه المدينة وضجيجها
وبريقها...

القرية القديمة...

بيوت متواضعة... كلا.. بل هي شامخةٌ شموخ الجبال
المحيطة بها، وصلبة صلابة الحجارة التي بنيت بها جدرانها
السامقة... إن أعين الناس المغموسين في أوحال المدينة لترى
هذا الكيان الشامخ، شبحاً من أشباح الماضي، وتتنظر إليه
نظرة ازدراء وإشفاق، وحُقَّ لتلك الأعين المخدوعة أن ترى
القرية القديمة على هذه الحال، ألم تُعشِّها أضواء المدينة
الزائفة؟ ألم تخدرها مظاهر الترف، ووسائل الراحة
والاسترخاء؟..

إن القرية القديمة هي الوثيقة المجسِّمة التي تشهد
بمواقف الرجولة والصبر عند آبائكم وأجدادكم أيها
المخدوعون.

ماذا أصابك أيتها القرية الحبيبة؟

عبد الرحمن بن صالح العشماوي _____ في وجدان القرية

أعاد السؤال مرةً أخرى مصحوباً بزفرات حرّى لما يراه من
مظاهر لهو الناس وانشغالهم وتكاليهم على الدنيا واستهانتهم
بهذا الكيان الشامخ العريق.

وخطا خطوات سريعة نحو القرية، وكأنه يهرب من صخب
الحياة إلى هدوء القرية التي تنظر إلى كل ما يجري نظرة
المشفق الحزين...

ها هو ذا الآن يقف على ناصية «المسراب»؛ ذلك الطريق
الضيّق المسقوف المظلم الذي يربط طرفي القرية، يتأمل
جدران الصخرية التي تقوّست ظهورها كما تقوّست ظهور
شيوخ القرية الذين امتدت بهم أعمارهم ليشاهدوا بأعينهم
هذه النقلة العجيبة، بل هذه القفزة التي أخذت أبناءهم
وأحفادهم بعيداً عنهم، حتى أصبحوا بينهم كالغرباء.

وإنه ليتأمل تلك الجدران المغبّرة، والبيوت الخاوية،
والسقوف المنهارة، إذ رأى في طرف «المسراب» الآخر طيف
شخص قادم يقتلع خطاه من الأرض، وعجب لهذا القادم في
ذلك الوقت، وشعر بسعادة أن يرى من يفي لهذه القرية في
وقت قلّ فيه الأوفياء...

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العثماوي

وتتقدم خطوات ليتعرف على القادم ... من هو يا ترى؟
جسد طويل، ولكن الانحناء قريبه من الأرض... إن خطواته
واهنة، ولولا العصا التي يتكئ عليها لوقع على وجهه من شدة
انحناء ظهره الذي قوّسته الشيخوخة... ولما دنا منه عرفه، إنه
«حمدان».

وأسرع إليه وهو يقول: «الجدّ حمدان» حياك الله يا جدُّ،
ما الذي جاء بك إلى هنا؟...

ورفع إليه الشيخ عينين مجهدتين وقال: جاءت بي الهموم يا
بني، إني أشعر بالغبرة منذ أن سافر أولادي، وانشغل الناس من
حولي، وفارق الدنيا أصدقائي وإخواني، لقد روى لنا الشيخ
صالح - يرحمه الله - قصة ذات يوم عن هدهد سليمان أن
سليمان - عليه السلام - عاقبه حينما أخطأ بأن جعله في غير
جنسه من الطيور، وإنه عقاب أليم، كم هو مؤلم يا بني أن تعيش
مع بشر لا يشعرون بك، هموهم تختلف عن همومك، لهم آمالهم
وطموحاتهم ورغباتهم، يشعرون بكل ما حولهم، إلا بمعاناتنا
نحن الذين قدر الله أن نبقي على قيد الحياة... وسكت الشيخ
يسترد أنفاسه قليلاً، ثم قال موجهاً سؤاله إلى الفتى:

عبد الرحمن بن صالح العشماوي _____ في وجدان القرية

وأنت ما الذي جاء بك إلى هنا يا بني؟ .. وأخذ الفتى بيد الرجل واتجه به إلى «دَرَجِ المنزل القريب»، ذلك السَّلم المرصوف بالحجارة، وأجلسه وجلس إلى جواره وقال:

جئت - يا جدّ حمدان - لأستذكر الماضي الجميل، أستعيد صور تلك الأيام الماضية بما كان فيها من عناء وتعب، وسعادة وصفاء، كأني أراك الآن يا جدّ حينما كنت تسوق أمامك بعد صلاة الفجر ثورين أحمرين - ما كان أجملهما -، متجهاً إلى الأودية للحرث والزراعة والسَّقْي، كنت تهزُّ الأرض هزاً، وتملاً هذه الطرقات بأصداء تسبيحك ودعائك وذكرك، هنيئاً لك يا جد لقد جاهدت من أجل الأهل والأولاد، وتعبت في تحصيل لقمة العيش الحلال، واللّه لا يضيع أجر المحسنين.

وامتد الحوار بين جيلين، ... بين عالمين مختلفين... بين صورتين متباعدين من الشباب والشيخوخة، وكان حواراً رائعاً شجياً، تحدّث فيه «حمدان» عن القرية حينما كانت مثل خلية النحل، تصحو قبل صلاة الفجر وتظل تزرع وتسقي، وتحث، وتبني حتى تغرب الشمس، وتحدّث عن روح التعاون والتكاتف بين أهل القرية، وعن صفات الكرم والشيم، وصفاء الفطرة ونقاء السريرة، ثم رفع حاجبيه، وأشار بعصاه إلى البيوت

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العثماوي

القديمة، وقال: انظر يا بني إلى تكاتف هذه البيوت، وتلاحمها، أما ترى سطح البيت يُفضي بك إلى سطح البيت المجاور؟ أما ترى المسجد يتوسط هذه البيوت؟ إنه قلبها النابض يا بني، أما الآن فقد تفرقت بيوت القرية، وتعددت مساجدها، أتدري كم عدد مساجد القرية اليوم يا بني... إنها عشرة مساجد لا يصلي في بعضها إلا المؤذن والإمام، وربما صَلَّى المؤذن في بعضها وحيداً، لقد تباعدت البيوت وتباعدت القلوب، والله المستعان.

واسترسل الشيخ في حديث الذكريات، والفتى يصغي إليه باهتمام، يا لها من جلسة رائعة ما كان يحسب لها حساباً.. إنه الآن يعيش في عالم آخر، ينتقل مع كل كلمة يسمعها من محدثه إلى صور القرية القديمة يراها أمامه حتى ليُخيل إليه أنه يعيشها حقيقة، وبينما هو كذلك يجوب ماضي القرية بذاكرته إذ وجّه إليه «حمدان» سؤالاً مفاجئاً:

- كم الساعة يا بني؟ يا له من سؤالٍ مزعج قطع على الفتى ذلك الشريط الرائع من صور الذكريات .
- ماذا تريد من الساعة يا جد حمدان، إن الوقت طويل، بينك وبين الأذان ساعة كاملة.

عبد الرحمن بن صالح العشموي _____ في وجدان القرية
- ساعة فقط؟.

ونفض متكئاً على عصاه، وانطلق صوب المسجد .
وقف الفتى ينظر إلى ذلك الظهر المنحني، وإلى تلك
الخطوات الواهنة، ثم صرف نظره إلى «الطريق الإسفلتي»
الذي يشق القرية نصفين، فرأى العربات من كل نوع تخترقه
بسرعة هائلة، وعاد ببصره إلى بيوت القرية القديمة، فرأى ما
تعانيه من الوحشة والإهمال، ثم أعاد بصره مرة أخرى إلى
«الجد حمدان»، فرآه يغوص في أزقة القرية القديمة وكأنه
طيف قادم من سالف الأزمان، جلس معه قليلاً وارتحل، رأى
كل ذلك فأخذ يردد :

ترى العينُ ما لا يريدُ الفؤادُ

ويبغي الفؤادُ الذي لا ترى

يريد الفؤادُ مكان الثرياً

ولا تلمح العينُ إلا الثرى!

ألا أيُّها القلبُ هذا زمانُ

يُباعُ الكريمُ ولا يُشترى

وظل صامتاً لحظة من الزمن محمّلةً بالهموم .. ثم انطلق
متجهاً إلى المسجد، عبر ذلك «المسراب» الضيق، الذي يُعدُّ

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العشاوي
بؤابة القرية من جهتها الشمالية الشرقية، بل إنّه، بؤابة تنقله
إلى عالم الذكريات....

الليل يبرز على حقيقته، ظلامه الدامس، نجومه وكواكبه
المتألّثة، قمره الساطع، هلاله الذي يبدأ وينتهي كالعرجون القديم.
الفجر يأتيك كما هو صافياً نقياً، ضاحك الثغر مشرق
الوجه، يطلُّ عليك من الأفق الشرقي كصديق حميم يبوح لك
بما في فؤاده من الحب العظيم.

الشفق ذلك اللون الأحمر البديع، يعطيك لونه الحقيقي
بعيداً عن التحوير والتزوير، يمتد أمامك قطعاً حريرية رائعة.
النّدى والزهور، والأغصان، تبرز أمامك صبيحة كلِّ يوم
محمّلة بأنفاس السّحر؛ ذلك الوقت المميّز من الليل الذي
يصبغ الكون كلّهُ بصبغة عجيبة من الهدوء والصفاء.

الضحى هو الآخر له طعمه الخاص وسماته التي تميّزه
عن سواه..

أما الظهيرة فهي عالم آخر تمتزج فيه حرارة الشمس
المعتدلة ببرد النسيم العليل، وتتعانق فيه أشعة الشمس مع
أغصان الأشجار عناقاً يرسم على الأرض الخضراء ظلاً
ظليلاً، لا تستطيع أن تصفه الكلمات.

عبد الرحمن بن صالح العشاوي _____ في وجدان القرية

التراب، والصخور، وجذوع الأشجار، والعصافير، وأصناف
الحيوان الأخرى كلها تطلعك على حقيقتها دون تزويق.

لن تستطيع أن ترى ذلك كله رأي العين، إلا إذا كنت واحداً
من أهل تلك القرية التي تخطط لها من أشعة الشمس ثوباً من
البراءة والنقاء ترتديه صبيحة كل يوم، ولا تخلعه إلا إذا لبست
ثوبها الآخر الذي تخطيه من أديم الليل الموشى بالكواكب والنجوم.
إنها قرية «عراء» المتشبهة بـ «حمى ظبيان»: الجبل الذي
يضم القرية بين ذراعيه منذ مئات السنين.

لهذه القرية تميزها بين القرى الأخرى، ليس هذا التميز
في أبنيتها، ولا في طبيعتها، فأشكال البيوت فيها وفي القرى
المجاورة واحدة، والطبيعة واحدة، ولكن تميزها يكمن في بعض
ما شهدته من أحداث ومواقف، وما سعدت به من مجالس
علمية أقامها عدد من الشيوخ والدعاة الذين استأنسوا بها
واستأنست بهم بعد قدر لا بأس به من المشقة والعناء.

هذه البوابة الكبيرة للذكرى تحيط بها صورٌ كثيرةٌ مختلفة
الأشكال.. والألوان، صورٌ سعيدة وأخرى شقية، صور صافية
وأخرى عليها ما يشبه الغمام من تعاقب الأيام، هذه البوابة

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العشماوي

الكبرى إذا فتحت سمحت لعينيك أن ترى القرية، مسجدها العتيق، بيوتها القديمة المتعانقة عناقاً يوحي إليك بحب كبير، أزقتها الضيقة المتداخلة، شرفاتها المزينة بالمرّو الأبيض، مزارعها المتدرجة من أعلى الجبل إلى أسفله في شكلها البديع، آبارها الممتلئة بالماء الصافي، أغنامها، أبقارها، جمالها، سواقيها، أوديتها، أشجار العرعر والزيتون البري والطلح واللوز والتفاح والمشمش والخوخ والحماط، والتين الشوكي..

صخورها الضخمة الصلبة، نباتاتها العجيبة الغريبة:
«البقلة، والعُثْرَب، والطُّبَّاق، والحُرَّاق، والقُرَّاص».

أما عصافير القرية فإنها تقيم كل صباح مهرجاناً رائعاً للتغريد، بأصوات لا يملك من يسمعها إلا أن يهتز طرباً ويردد في سعادة غامرة «سبحان الله العظيم»! ولو قدر لك أن تتكئ قبل طلوع الشمس على جذع شجرة «السُّدر» الضخمة التي تزين واجهة القرية الشرقية وتقف وحدها شامخة متعالية، لسمعت أصداً ذلك الحفل الصباحي الكبير الذي تقيمه طيور «الفَرْفَر» بأصواتها النديّة وزقزقتها المثيرة حيث تحوّل «السدر» إلى مسرح للشدو قل أن تجد له نظيراً.

عبد الرحمن بن صالح العشماوي ————— في وجدان القرية

ثم لا تلبث إلا قليلاً حتى تهدأ الأصوات، ثم تسمع رفيف
أجنحة العصافير، وترى أسرابها تتطلق من أعشاشها في
صورة رائعة، وتسمع أصداً تتساب إلى نفسك من أفق نبوي
كريم، تتردد مع البكور ورفيف الأجنحة وحفيف الأشجار: «لو
توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو
خماصاً وتروح بطاناً».

ولو سمحت لنفسك أن تستكمل هذه الصورة البديعة،
فأخذت مكانك من جذع الشجرة قبيل الغروب لسمعت أصداً
ذلك المهرجان الرائع للتغريد، حين تأوي تلك الطيور إلى
أعشاشها بعد رحلة يوم كامل في طلب الرزق، حتى إذا ما
تدثرت القرية برداء الغروب، هدأت تلك الأصوات، فما تسمع
بعدها إلا حفيف أغصان تلك السدرة وكأنها تستكمل - في
هدوء - وقائع ذلك المهرجان الفريد، أو كأنها تهدد تلك
الأسراب من العصافير التي تأوي إليها كل مساء، وحينها
تردد في يقين «سبحان الله العظيم»!

كل هذه الأشياء تراها حين تفتح بوابة الذكرى الكبيرة
بمفتاح الشوق لتطلّ منها على ذلك العالم البديع.

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العثماني

أما إذا أصخت سمعك وقت الصلاة، فسوف تسمع صوت مؤذن ينطلق رائعاً ندياً يلامس شغاف قلبك فلا تملك إلا أن تجيب داعي الله.

إنه صوت ذلك الرجل الذي يحب القرية وتحبه، تأنس بصوته حين يؤذن، وتصغي في لهفة إلى مناجاته لربه بالدعاء والتسبيح والتكبير حينما يخترق أزقتها في الغدو والرواح.

هل تأنس المواقع إلى ساكنيها؟! إن أجواء القرية تكاد تحلف لك بيمين لا تحنث فيها أنها تأنس - كل الأنس - إلى ذلك الرجل التقيِّ الوقور.

«سبحان الله!».. ما أروع هذا النسيم وما أطفه، وما أجمل هذا السحر وما أطيب أنفاسه... يا لها من ساعة يغفل عنها الغافلون.. اللهم إني أسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ﷺ، وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك محمد ﷺ، سبحانك يا من تبسط يدك في هذا الوقت من الليل وأكثر عبادك يقبضون أيديهم عن فضلك العظيم...

«اللهم إنا نسألك من فضلك» تحية لهذا الديك الذي يرفع صوته مسبحاً لله، والناس نائمون...

عبد الرحمن بن صالح العشماوي _____ في وجدان القرية

كان «محمد علي» في الثلث الأخير من ليلة الجمعة في أحد شهور عام ١٣٧٢هـ يردد هذه الكلمات، وينثر في أجواء منزله الحجري المتواضع تسبيحه وتهليله وتكبيره..

ومحمد علي هذا، رجل وقور ذو سميت وخلق حسن وحب للخير جعله مضرب مثل لأهل القرية، وله من صدقه وأمانته ما جعله أهلاً لثقتهم وحبهم وتقديرهم.

قبل أن تنفض القرية عن أهدابها آثار الظلام، وقبل أن يرفع الديك صوته منادياً للنيام، كان محمد علي يجلس في مُصَلَّاهُ في «عليته»، تلك الغرفة الصغيرة المتشعبة بزواوية من منزله الصغير، يصلي ما يشاء له الله أن يصلي، ثم يرفع كفيه إلى السماء في دعاء طويل، ثم يستغرق بعد ذلك في لحظات مخصبة من التفكير في ملكوت الله، والتأمل في هذا الكون العجيب.

لم يكن محمد علي متعلماً، بل هو رجل أمي لا يعرف القراءة، ولا الكتابة، ولكن المتعلمين في قريته - وهم قليل - يعجبون من كثرة ما يحفظ من الأدعية الماثورة، ومن حفظه لعدد من سور القرآن الكريم حفظاً جيداً، كما يعجبون من موافقته للسنة الصحيحة في كثير من حركاته وسكناته.

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العشماوي

وكان محمد علي رمزاً حياً في قريته، فهو مؤذن المسجد، ولأذانه طعم خاص، إنَّ صوته الجميل لينساب إلى القلوب انسياباً، كثير من الناس في القرى المجاورة يقولون: إننا نصحو لصلاة الفجر على صوت «محمد علي» ... لم تكن المساجد تعرف من مكبرات الصوت شيئاً، القرية تنام في الظلام، فلم تكن الكهرباء قد دبَّت في عروق القرية آنذاك.

الكهرباء؟؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟ لم يكن أحد من أهل القرية يعرف عنها شيئاً.. سوى رجل سافر إلى الحبشة وعاد يخبر الناس عن قناديل تضيء المنازل والطرقات دون أن يكون لها وقود.. وكان أهل القرية يتغامزون ساخرين بالرجل، وهم على يقين أنه قد ابتلي بالكاذب.

قال ذلك الرجل لأهل القرية ذات يوم: لقد رأيت في سفري هذا آلة لها سَيْرٌ طويل تشتغل، ويوضع فيها القمح فتطحنه في وقت قصير.. ورد عليه أحدهم قائلاً: يبدو أنك قد استغرقت في نوم طويل رأيت فيه أحلاماً كثيرة، فأنت تقص علينا شيئاً منها.... نحن نظل ندير الرحي بأيدينا الساعة والساعتين والثلاث حتى نطحن قليلاً من القمح، وأنت تقول إن هنالك آلة تطحنه في لحظات؟! إن أمرك لعجيب،

عبد الرحمن بن صالح العشماوي _____ في وجدان القرية
وانتهت الجلسة بضحكات عالية من الجالسين، وشعورٍ بالأسى
في نفس الرجل على هذا الانقطاع الكبير بين عقول جماعته
وقفزة التطور المدني التي رآها هناك.

كان صوت مؤذن القرية «محمد علي» سمةً من سماتها
البارزة، وكم من متكاسل عن الصلاة نشط إليها عندما لامس
سمعه صوت المؤذن التقيّ.

- هنيئاً لك يا أبا أحمد، يدعو لك كل شيء يصل إليه
صوتك، وتبعث يوم القيامة مع المؤذنين وأنتم أطول الناس
أعناقاً.

- رحمك الله يا أبا علي، إننا مقصرون في جنب الله،
وإنما ننتظر رحمة الله التي وسعت كل شيء...

بعد أن أتم صلاته وتسبيحه خرج إلى «سُدة» منزله وتأمل
الأفق قليلاً... ثم رفع صوته منادياً:

- يا أم أحمد... يا أم أحمد. هيا إلى الصلاة، أيقظي
الأولاد، اذكري الله، واتجهي إليه بالدعاء، لكأني أرى أبواب
السماء مفتوحة تستقبل دعاء المؤمنين...

واستيقظت أم أحمد، وتحولّ سكون المنزل إلى حركة
دائبة.

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العثماوي

ذلك شأن المنزل السعيد « المتواضع » نشاط إلى الطاعة،
وسعيٌ دائب في تحصيل الرزق الحلال.. يستيقظ أهله مع
الفجر... يشاهدون يومياً كيف يفيض نهر الضياء منساباً عبر
الأفق إلى بقاع الأرض، ويرون كيف تتكشف سجد الظلام عن
وجه الشمس المشرق، بل إنهم كثيراً ما يرون هذه الصور
الرائعة لانسلاخ النهار من الليل وهم في الوادي القريب من
القرية «الشعب»؛ هذا الوادي الصغير الذي يضرب المثل به في
الخصب والعطاء والبركة، كما يضرب المثل بصاحبه «محمد
علي» في الورع والتقوى.

في صبيحة يوم الجمعة هذا كان صدر «محمد علي»
منشرحاً، وكان هذا الانسراح يفيض على وجهه القمحي
إشراقاً وصفاءً، وعلى ثغره ابتساماً، وعلى حديثه رونقاً وبهاءً،
ليست هي المرة الأولى التي ينشرح فيها صدر هذا الرجل
التقي، بل إن من صفاته التي يعرفها الناس الانسراح، «ومن
يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» نعم ليست هي المرة
الأولى التي يظهر فيها انسراحه، ولكنَّ انسراحه في هذا اليوم
كان لافتاً للنظر.

عبد الرحمن بن صالح العشاوي ————— في وجدان القرية

- يا أبا أحمد ... إني أراك منشرح الصدر في هذا اليوم
المبارك انشراحاً يثير الإعجاب.

ابتسم قائلاً:

- يثير الإعجاب - يا أم أحمد - أم يثير التساؤل؟!

وطال الحوار بين الزوجين المحبين، وهو حوار على عادته
يفيض بالحب الكبير الذي يجمع بين قلبيهما .

وقد روى لها تفاصيل رؤيا جميلة رآها في منامه تلك
الليلة، ولم يعكّر صفوه إلا تلك السحابة من الحزن التي غام
بها وجه أم أحمد بعد أن علمت بعزم زوجها على السفر.

* * *

كان الجو معتدلاً أحسن ما يكون الاعتدال، حيث كانت نسائم
الربيع ما تزال تنعش القرية المتكئة على «حمى ظبيان»، ذلك
الجبل الساكن الوقور، لم تهب بعد رياح الخريف بجفافها الذي
يترك آثاره شقوقاً على وجوه الناس وأيديهم وأرجلهم، وكانت
الشمس قد أتمت رحلتها اليومية المعتادة ووقفت محمّرة الوجه
على جسر الغروب تلقي على القرية الوداعة نظرتها الأخيرة،
نظرة الوداع الشجيّ التي تتكرّر كلَّ يوم، أما طرقات القرية فقد

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العثماوي

كانت تسيل بمئات المواشي من أغنام وأبقار، تتجه نحو مراحتها بعد أن أمضت يوماً مخصباً في مراعي القرية الخضراء.

وهناك في باحة الدار الصغيرة تسمع خَضْخَضَةَ الماء في ذلك الإبريق المصنوع من جلد البقر والذي يسمونه «الرَّكْوَة»، وتسمع نحنة «محمد علي» وتسيحه وذكره لله وهو يتهيأ للوضوء.

- يا أم أحمد لا تنسي أن تزيدي في عشائك الليلة، فقد رأيت بعد صلاة العصر رجلاً غريباً جالساً في المسجد، وسألته عن حاله فأخبرني أنه عابر سبيل وأنه يريد مكة، إنَّ حالته تشير إلى الشفقة يا أم أحمد.

- معنى ذلك أنك قد دعوته للعشاء؟

- نعم، أنت تعلمين أننا بحاجة إلى شيء نقدمه لأنفسنا لنجده في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون.

- نعم يا أبا أحمد، ولكنك تعلم أن الزاد قليل، وأن ثمرة «البلاد» هذه السنة لم تكن على ما يُرام.

- أعرف ذلك، ولكن الله سيبارك!

ذهب إلى المسجد مهلاً مكبراً، وانصرفت أم أحمد إلى عجبتها لتزيد عليها شيئاً من الطحين.

عبد الرحمن بن صالح العشماوي _____ في وجدان القرية
لقد تعودت أن يستضيف زوجها الفقراء والمساكين وعابري
السبيل وهي راضية بذلك كل الرضا، إنها تحب عمل الخير،
ولها فيه قصص عجيبة يتناقلها أهل القرية، فكم من صدقة
قدمتها لمحتاج يمينها لم تعلم عنها شمالها، وكم من ثوب
أهدته لامرأة محتاجة دون أن يعلم بذلك أحد، ولكن أم أحمد
برغم ذلك كله تدخل أحياناً في خصام طويل أو قصير مع
زوجها حول هذه الاستضافات التي لا تتقطع.

- أليس في القرية إلا أنت يا أبا أحمد، ليس لدينا الليلة
طعام يكفيها، وأنت تعلم ذلك، فلماذا أتيت بهذا الرجل معك؟
وابتسم أبو أحمد قائلاً :

- سأتنازل للضيف عن نصيبي من الطعام هذه الليلة.
وصرفت عنه وجهها مغضبة وهي تقول:
- عجباً لك تريد الخير والأجر لك وحدك، أترك للناس
شيئاً يا رجل..

ولم يجب، بل ظل صامتاً هادئاً حتى التفتت إليه بعد أن
يئست من حديثه وتلاقت عيناها، وظلتا تتحدثان حديثاً
صامتاً رائعاً.

في وجدان القرية ————— عبد الرحمن بن صالح العشاوي

- الحمد لله الذي أنعم عليَّ بكِ يا أم أحمد، وأرخت
جفنيها دون أن تجيب..

- كلما غضبت كان حديثك أكثر سحراً وجمالاً، أنت رائعة،
أنت سيدة نساء قريتنا، أنت..

ورفعت بصرها إليه وتركت لعينيها الحديث، وبعد لحظة
صمتٍ لم تكن قصيرةً قال لها:

- أسأل الله يا أم أحمد أن يحيينا حياة طيبة، وإذا قدر
علينا الموت أن يميتنا معاً حتى لا يحزن أحدنا على الآخر.
- آمين.

وابتسم لها وهو يقول:

- إذن فقد رضيت الحبيبة عن حبيبها.

- وكيف لا أَرْضَى عنه وهو لا يأمرني إلا بما فيه طاعة الله.

* * *

كانت ليلة الوداع حافلة بالحديث عن الذكريات، القرية
نائمةٌ هادئةٌ بعد يوم من العمل الدائب... الحرث، سقي الزرع
بالسواني، رعي الأغنام، جلب الماء من الآبار إلى البيوت، ذَبْحُ
«الشَّرْكَة» وتقطيعها وتسديتها، ثم توزيعها على المشاركين فيها...

عبد الرحمن بن صالح العشاوي _____ في وجدان القرية

وللشُّرْكة هذه طعمها المتميّز، تظل بعض الأسر الشهر والشهرين والثلاثة وهي تتطلع إلى أن تشترك مع أهل القرية في ذبح بقرة أو ثور لتتال بذلك شيئاً من اللحم، وإذا نالته كان له عندها طعم متميز وقيمة كبيرة، وهي صورة واحدة من عشرات الصور التي يتجلى فيها تلاحم أهل القرية، وتعاونهم.

كانت ليلة الوداع حافلة بأحاديث الذكريات السعيدة والحزينة القريبة والبعيدة، كما كانت حافلة بعبارات الحب الصادق والشوق واللَّهفة المشوبة بالحزن والأسى للفراق الوشيك..

ولم تجبه، ولكنَّ دموعها أجابته، كاد يبكي، ولكنه تجلَّد

وقال:

- أيتها الزوجة الحبيبة، كلُّها أيام وأعود إليك - بإذن الله -
إذا كنت الآن تستشعرين فظاعة الفراق، فتذكري روعة اللقاء
عما قريب..

وطال بينهما الحديث حتى استغرق أكثر الليل، ووقف بهما
على شرفة السَّحَرِ الحاملة.

* * *

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العشماوي

لم تكن «أم أحمد» فتاة كغيرها من فتيات القرية، لقد نشأت في بيت «القاسم» الكبير، هذا البيت العريق الذي أنجب عدداً من الرجال الأبطال والنساء المتميزات، إنه «صحن غامد» كما يقولون لأنه بيت كرم، وله علاقاته الممتدة عبر القرى المجاورة، بل إن علاقات المصاهرة والصدقة والمخالفة قد تجاوزت القرى المجاورة إلى قرى بعيدة في الحاضرة والبادية، وكما أن هذا البيت مميّز برجاله ونسائه فهو مميّز ببنائه الضخم، إنه يقع في واجهة قرية «عراء»، يعتلي ظهر الأرض بثلاثة طوابق، مع كونه على موقع مرتفع، وله درجته الفسيح، درج تألفه أرجل الضيوف الذين لا ينقطعون عنه، وهو درج يُفضي إلى فناء واسع يُسمّى «الجَريّن» أي باحة الدار، وهذا الفناء يزدحم بأهل البيت صغاراً وكباراً كما يزدحم بالأغنام والأبقار، وقد خُصّصت ناحية منه مراحاً للجمل، ولجمل القاسم عند الناس مكانة خاصة، فهو الذي يحمل متاعهم إذا احتاجوا، وهو الذي يحمل العروس في هودجها المزيّن حينما تُزفُّ إلى بيت زوجها، وهو الذي يحمل حُرَمَ الحنطة والذرة بعد الحصاد من الأودية المحيطة بالقرية إلى «الجُرن»، والجُرنُ أفنية مُجهّزة ليداس فيها القمح بواسطة الثيران التي تجر «الخورم»، ذلك الحجر الكبير الذي يُربط

عبد الرحمن بن صالح العشماوي _____ في وجدان القرية بحبل مشدود إلى خشبة محمولة على عنق ثورين تُسمى «المقرنة»، إن القرية تحب جمل «القاسم» هذا، وتطرب حينما تسمع هديره ورغاءه، وإنها لتتظر إلى بيت القاسم نظرة خاصة ملؤها الإعجاب والتقدير لهذا البيت الكبير.

نشأت «أم أحمد» في هذا البيت فتاة رائعة الجمال، راجحة العقل، كريمة الطبع، يزين ذلك وقارٌ وتجلُّه مهابة يشعر بها كل من رآها، وفتاة بهذه الصفات ستكون محط الأنظار.. لقد طلب يدها أكثر من رجل، ولكن أعمامها وإخوتها ما يزالون ينتظرون الرجل الذي يليق بها.

كان الشاب «محمد علي» من بيت له أيضاً مكانته في القرية، صحيح أنه لم يكن في حجم بيت القاسم ضخامة وعدداً، ولكنه كان بيتاً ضارباً، أنجب رجالاً أشداءً تعرف القرية لهم قيمتهم ومكانتهم، إنه بيت «آل سحَّاب»، وقد نشأ «محمد علي» في هذا البيت مع إخوانه من أبيه نشأة العمل الدؤوب المضني، زراعة وحصاد، وسقاية للزرع بالسواني، مع ما يصحب ذلك من ترميم مستمر لجدران المزارع المبنية بالحصى، إن العناية بالمزارع التي يسمِّيها أهل القرية «البلاد» تحتاج إلى جهد كبير.

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العشماوي

كان «أحمد سحَّاب» عميد هذا البيت صاحب دين
وصلاح، وقد ورث محمد علي عن أبيه هذه الصفة، وتهياً له
من مجالسة الدعاة، و«المطاوعة» ما لم يتهياً لوالده، وهو مع
ذلك رجل شجاع نشأت بينه وبين «الوادي» المسمَّى «شعب آل
سحَّاب» ألفة ومودة راسخة، حتى عرفت القرية محمد علي
بالشَّعب، وعرفت الشعب به.

لم يكن الشَّعب كبيراً، إن مساحته صغيرة جداً ولكن تربته
خصبة، وبثره الصغيرة «الكرُّ» معطاءة لا تنقطع، ولذلك فهو
مضرب مثل للخصب، وثمرته من خيرة الثمار، وقد أعطاه
«محمد علي» من حُبِّه وجهده، وسقاه من عرقه، فزاده ذلك
خصباً ونماءً، وتميّزت هذه العلاقة الحميمة بين الرجل
وشعبه تميّزاً يعدُّه أهل القرية سبباً لنزول البركة فيه،
إنها علاقة وجدانية خاصة، فما تكاد تقع عين القادم على
هذا الوادي حتى يرى «محمد علي» في حالتين، إما أن يكون
في حركة دائبة مستمرة يبذر الحبوب، ويعزق الأرض
ويصرف الماء إلى «القِصَّاب»؛ وهي الأحواض التي يُعنى بها
أشد العناية، وإما أن يكون متجهاً إلى القبلة يصلي في خشوع
وإخبات.

عبد الرحمن بن صالح العشماوي _____ في وجدان القرية
لقد تعود «الشعب» على صاحبه، واستأنس به، وبتسبيحه
وذكره ودعائه، ولو نطقت أشجاره وأحجاره لقاتلت عن الرجل:
ما يحسن بمحب أن يقول عمَّن يجب؟!

كان الشاب «محمد علي» يرنو إلى شرفات بيت القاسم بعين
تبحث عن أمل قادم جميل إنه يمر بهذا البيت صباح مساء،
حينما يسرح إلى الوادي صباحاً مع إشراقة الشمس، وحينما
يروح إلى البيت مع غروبها، إنَّ المسرَّاب (السرداب) الذي يمرُّ
من تحت بيت القاسم ليصل طرف القرية الشمالي الشرقي
بطرفها الآخر هو الطريق الذي يسلكه محمد علي كل يوم.

لقد كان يشعر بشعور غريب كلما لاحت له شرفاتُ هذا
البيت، وكان يشعر بروح من الدفاء تسري في عروقه حينما
يسلك ذلك «المسرَّاب»، إن القلب ليخفق هنا خفقاناً لذيذاً
جميلاً، فلماذا يا ترى؟.

سأل نفسه ذات مرة: هل ستصبح زوجةً لي؟ يا له من
سؤال كبير، وأنَّى له ذلك وقد سمع أن رجلاً سرياً ثرياً قد
تقدَّم لخطبتها؟

كان الأمل ضئيلاً، ولكن زواجها من غيره أمر فظيع من
الصعب عليه أن يحدث وقع الخطير.

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العشاوي

لم ينم تلك الليلة، كان قد استسلم لشعور فيّاض أحاط
بنفسه من كل جوانبها، إن «مسفرة» وهذا اسم الفتاة، جوهرة
غالية إنها تستحق أن يسهر من أجلها الليالي الطوال، وفي
اليوم التالي سمع القصة:

لقد اختلف أعمامها وإخوتها في أمر زواجها من ذلك
السريّ الثريّ، بل إن أحدهم قد بعث إلى ذلك الرجل من
أخبره برفضهم طلبه وشعر «محمد علي» برعدة تسري في
جسده، وتساءل:

لماذا لا أتقدم لخطبتها؟ وبعد لحظات من التردد وجهّه
عمته إليها ليعرف رأيها.

في ذلك اليوم نسي «محمد علي» الشعب، فقد ظلّته
السعادة بعد أن أخبرته عمته أن «مسفرة» لا تعدل به سواه،
إذن فلتكن الخطوة التالية.

لم تؤذّن الشمس بالمغيب حتى سمع القصة كاملة، لقد
اختلف عليه أعمامها وإخوتها كما اختلفوا على الذي قبله،
منهم من يرى أن يزوجها بذلك السريّ الثري، ومنهم من يرى
أن يزوجها «بمحمد علي» فهو ابن القرية، يعرفون «مدخله
ومخرجه».

عبد الرحمن بن صالح العثماني _____ في وجدان القرية

اضطربت نفسه وأخذ يتمتم «يا إلهي.. أي الفريقين سينتصر؟ وتظلُّ هواجسُه ومخاوفه تُلحُّ عليه حتى يكاد اليأس يطغى على قلبه وعقله، وإذا تذكر حالته المادية المتواضعة شعر ببعد المسافة بينهما.

كان من عاداته بعد كلِّ صلاة أن يُطيل المكث في المسجد، بل إنه آخر من يخرج من الجماعة، وفي تلك الليلة قرَّر أن يظل في المسجد ما بين المغرب والعشاء، إنه لا يريد أن يتعشَّى بالرغم من إحساسه بالجوع الشديد، وكيف لا يجوع من يقضي يومه في العمل المضني زراعة وسقاية ورعياً؟

رفع يديه إلى السماء يدعو: «اللَّهُم أسألك أن تختار لي الخيرة الطيبة»، وما كاد يُتم دعاءه حتى سمع خطوات قادم، ثم سمع صوت عمته تتأديه «محمد علي»، وهبَّ من مكانه مسرعاً ولم يكذ يسألها حتى قالت:

إن «مسفرة» لا تريد سواك، وقد اشتد الخلاف بين أهلها فهربت إلى بيت «آل يحيى» خوفاً من بطش عمها الذي ما يزال مصراً على تزويجها من ذلك السريِّ الثريِّ. أرخى رأسه مستغرقاً في لحظة صمت محمَّلة بالتفكير، ثم رفع يديه إلى السماء ودعا: «اللَّهُم إنا نسألك خيراً ما في الغيب، اللَّهُم احفظها وارعاها واكلأها بعينك التي لا تنام».

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العثماني

مرت أسابيع ثلاثة، طوال ثقال، والفتاة لاجئة «دخيلة»
عند آل يحيى، ليلاً طويلاً، ونهارها ثقيل، وقلبها يئن من وطأة
الحزن والأسى، ولولا ما لقيته من رعاية وعناية أهل ذلك
البيت الذي لجأت إليه لأودى بها حزنها العميق.

وفي صبيحة يوم شتائي قارس البرد، كثيف الضباب،
متراكم السحاب، كانت الفتاة «مسفرة» فيه أعمق حزناً، وأكثر
همماً وغمماً، سمعت صوت امرأة تتحدث إلى بعض نساء البيت،
واهتز قلبها، إنه صوت أختها «صالحة»، لقد ثارت في وجدانها
مشاعر غزيرة متشابكة ومرّت - في تلك اللحظة - بخيالها مئات
الصور من حياتها الماضية الموزعة بين الفرح والحزن، والراحة
والتعب والرّضا والغضب، وإنها لفي غمرة التأمل الشجي لتلك
الصور إذ دخلت عليها أختها، وكان بينهما ما يكون بين أختين
طال بينهما الفراق، وعصفت بحياتهما الأحداث.

- لقد تغيّرت كثيراً يا «مسفرة»، إن أثر الحزن على وجهك
لواضح يا حبيبتي.

- نسيت يا صالحة ما يردده أخوك «عوضة» في أسفاره:
«والهمُّ إذا علّق بقلب إنسان شَبّه»، إن الهم يشبُّ قلب
المهموم يا صالحة كما تُشبُّ النار.

عبد الرحمن بن صالح العشاوي _____ في وجدان القرية

- ولكن الأمر الآن قد وصل إلى خير.

كيف؟ أخبريني ياصالحة، بشريني ولك عندي البشارة،

وابتسمت أختها قائلة:

- لقد سمعت أعمامي وإخوتي وعمّاتي وبعض أقاربنا

يناقشون أمرك البارحة ويلوم بعضهم بعضاً على ما جرى،

وعلى تركك دخيلة عند أهل هذا البيت الطيّب، ولعلمهم قد

اتفقوا - كما أظن - ...

وقاطعتها مسفرة:

- على أي شيء اتفقوا، عجلّي بالخبر ياصالحة.

ولم تجب صالحة، بل تركت لأسارير وجهها الصّبوح

ولابتسامتها الحانية أن تجيب.

وساد الصمت بين «الشقيقتين لحظةً من الزمن،

كانت خلاله ملامح وجه «مسفرة» تنفرج، ووجهها

القمرى يشرق حتى كاد يتحدث إلى أختها بلسان البهاء

والجمال...

- صالحة، تحدثي، هل هناك ما يسرُّ.

- نعم يا مسفرة، أبشري، إن مع العسر يسراً.

قاطعتها أختها قائلة.

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العثماوي

- عجباً لك يا صالحة، تحدثني أخبريني هل انتهت
المشكلة.

- انتهت وربما تغادرين هذا البيت إلى بيت أهلك هذا
اليوم...

وعاد إلى وجه «مسفرة» حزنه، وظهر على ملامحها الغمَّ
وغامت فيه سحائب الأسى، حتى إن أختها ارتاعت لهذه
السحب المتكاثفة من الغم التي لاحت في وجه أختها بعد أن
أشرق بالفرح لحظات.

- ماذا أصابك يا أختاه؟ هذا خبر مفرح فلماذا تحزنين؟

- كيف لا أحزن يا أختي وقد عانيت ما عانيت، أوّاه من
قسوة اليُتمِّ يا صالحة، منذ مات أبي وأمي - رحمهما الله -
ونحن نعاني، ونعاني، نعيش على المداراة لأهلنا وأقاربنا، ومع
ذلك لا نسلم من اللوم والعتاب والتقريع، بل والضرب.. أمّا
رأينا فلا مجال لطرحه أصلاً، فكيف يكون هنالك مجال
لقبوله؟! إني أشعر أن الرياح تسيّر دائماً في اتجاه معاكس لنا،
العبء علينا في البيت، أو في الوادي أسألك بالله يا صالحة،
هل رأيّتي يوماً من الأيام فارغة من عمل، وأنت هل تحققت
لك الراحة... أنا لا أذكر أنني رأيّتك خالية من عمل شاق مُضن

عبد الرحمن بن صالح العشماوي _____ في وجدان القرية

يا أخيّه، اللّهم إلا أوقات النوم التي لا بد منها... اسألني عنا
الرحى التي تشققت أيدينا ونحن نديرها.

أسألني الملة التي تلوّحت وجوهنا بلهب النار التي نشبها
فيها، اسألني الغنم، اسألني البقر، اسألني الجمل، ستحدثك عن
معاناتنا الحقيقية، عن هذه الحياة المضنية المتعبة، كانت كلمات
«مسفرة» مؤثرة قوية، وكانت العبرة تخنقها أحياناً وهي تتذكر
بعض ما جرى لها... ولم تسكت إلا حينما نظرت إلى أختها
فرأت أنها مستغرقة في البكاء، وقد سالت دموعها غزاراً إنها
تتابع شريطاً من الذكريات المؤلة، وهيمن على الأختين
البائستين جوٌ من الحسرة العميقة... وأظلمت الدنيا في
عينيها، وتمكن اليأس من قلبيهما في تلك اللحظة الشاحبة،
وما أنقذهما إلا دخول «أم محمد» صاحبة البيت، حيث
بادرتهما - وقد هالها ما رأت على وجهيهما من معالم الأسى
واليأس - بقولها: ماذا دهاكما؟ مالي أراكما شاحبتين وكأن
الدنيا قد انتهت، والأمل قد مات، والحياة قد توقفت؟!... وبعد
لحظة صمت قالت مسفرة:

- أبكي حالتي وحالة أختي يا أم محمد، إنني أشعر أن

الحياة لا قيمة لها ولا طعم، إن اليتيم قد حطّم حياتنا.

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العشماوي

- ما هذا الكلام يا مسفرة، الدنيا لا تدوم على حال،
ومثلك لا يناله اليأس، لا تنسي أن مع الصبر الفرج.

- ولكن الصبر قد طال يا أم محمد، ولم يأت الفرج، إني
أرى قيمتي بصفتي إنسانة تتضاءل عند أهلي، بالرغم من
عنائتي وتعبي في خدمتهم أجدهم يقفون في وجهي حينما
عبرت عن رغبتني، إنهم يقتلون بقايا الأمل في نفسي.

- هوئي عليك يا مسفرة، والله لقد عانيت من اليتيم والعناء
أكثر مما عانيت، ومع هذا فقد سخر الله لي «أبا محمد» عمك
يحيى حفظه الله، فعوضني عن كل ذلك، ونسيت ما عانيت.

- ولكن ...

- دعي عنك «لكن» هذه، فمثلك ومثل أختك في جمالهما
وحسن خلقهما يجب أن يظل أملهما مشرقاً.

- إني أعجب من هذا الموقف القاسي تجاه رأيي ورغبتني.
وابتسمت أم محمد وقالت:

- أنت تعلمين يا ابنتي أن عاداتنا وتقاليدينا تلغي رأي المرأة
تماماً، وأن أهلها هم الذين يختارون لها من شأؤوا من الأزواج،
فهذه ليست مشكلتك أنت وحدك، إنها مشكلة كل النساء في
قريتنا، إنني لا أتذكر أن امرأة ممن أعرف قد تزوجت برغبتها،

عبد الرحمن بن صالح العشماوي _____ في وجدان القرية
هذه مشكلة عامة لا تختص بواحدة دون أخرى، وإن مَنشأها بُعد
كثيرٍ من الناس عن تطبيق شرع الله تعالى في هذه المسألة.
كان حديث «أم محمد» صادقاً مؤثراً، وكان وقعه على
نفس الفتاتين قوياً، فما كادت تنتهي من حديثها حتى أشرق
وجهاهما، وطابت نفساهما، وعاد إليهما بصيص من أمل كاد
يذوي ويتلاشى.

وما مرَّ ذلك اليوم حتى كبر الأمل في نفسيهما، فها هو ذا
«عَوْضَةَ» أخوهما يأتي بقامته الفارعة، ووجهه العريض
المشرب بحمرة، وابتسامته التي سرعان ما تتحول إلى
ضحكات عالية يعرفها أهل القرية جيداً، إنه رجل المهمات
الصعبة في بيت «القاسم»، بل في القرية كلها، هو الرجل
المرافق للجمل في ذهابه وإيابه، ولهذا فإنه معروف عند كثير
من الناس من القرى المجاورة البعيدة والقريبة، كان عَوْضَةُ
رجلاً مرحاً، تألفه النفوس منذ أن تراه لأول وهلة، وكان رجلاً
جلداً قوياً، له مع الجمل وأحماله قصص كثيرة يتناقلها الناس،
فإذا ما راودت الجمل وحشيته وهاج وماج، وأرسل هديره
المخيف، فإن عوضة هو الذي يستطيع - بإذن الله - أن يروِّضه
حتى يبرك على الأرض.

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العثماني

دخل عوضة بيت «آل يحيى» وهو يقول ضاحكاً:

- سلام عليكم و«العَوْن»، وهذه تحية أَلْفَهَا أهل القرية
وأحبوها فهم يبادرون بها بعضهم بعد السلام، يقول قائلهم
«والعون» فيرد عليه الآخر «اللَّهِ يعينك»، إن عناء الحياة وقسوة
مشاغلها جعلتهم يدعون بالعون لبعضهم دائماً.

وردت عليه أم محمد صاحبة المنزل:

- وعليك السلام يا عوضة، الله يعينك، هاه ماذا تريد؟

وأرسل ضحكته المميزة، ورفع «مشعابه» تلك العصا التي
ينحني طرفها، وهزَّها في الفضاء، وقال منشداً:

- «نبغي نرد الظبي لأهله... ثم قال: لقد جئت يا أم محمد
ومعي «مشعابي» و«جنبيتي»، أطلب المبارزة فأين أبو محمد..

قالت - وهي تخفي ابتسامتها، فهي تعرف أن عوضة كثير
المزاح، ولكن لمزاحه حداً، فكم من مرة تلاشت ابتسامته في
طرفه عين، وتحولَّ إلى رجل آخر ترتجف لغضبه القلوب -:

- كفانا الله شرك يا عوضة، ولكن ترى مالك عندنا شيء،
ودخل إلى باحة الدار حيث رأى أختيه، فمشى خطوات وهو
يقول:

- أريد هاتين الفتاتين.

عبد الرحمن بن صالح العشاوي _____ في وجدان القرية
وما أتم كلمته حتى تهدجَّ صوته ووقف في مكانه وزاد
احمرار وجهه ثم انخرط في البكاء، وبكت أختاه، وبكت أم
محمد وهي تقول:

- سبحان الله ما أرق قلبك يا عوضة!

هكذا كان عوضة، قوياً إلى حد الجفاء، مرحاً إلى حد
العبث، رقيقاً إلى حد البكاء، نعم هكذا عرف الناس «عوضة»،
البطل، المرح، الحنون العطوف، ومما يذكر أهل القرية تلك
الحادثة التي لا تنسى:

كان عوضة قد وضع على الجمل حملة من حزم الحنطة
وجاء بها من الوادي القريب، حتى إذا اقترب من دارهم، وكان
بمحاذاة «الصفاء» تلك الصخرة العظيمة التي تمثل مع «بيت
القاسم» المجاور لها واجهة القرية المميزة، هناك وقف الجمل،
أبى على سائسه أن يخطو خطوة واحدة، وحاول عوضة أن
يحركه فلم يتحرك، ولما جره بزمامه أرغى الجمل وأزيد ثم شي
أرجله وبرك مكانه، ونظر عوضة إلى «الصفاء» فوجد عدداً من
رجال القرية جلوساً في مكانهم المعتاد، ففي الصفاء مواقع
صخور ضخمة معتدلة اتخذها أهل القرية مجلساً لهم يلتقون
فيه يراقبون الأودية ويتحدثون في أمور شتى..

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العشماوي

رأى عوضة بعض رجال القرية على الصفا، ونظر إلى جملة الذي برك فثارت ثأثرته، وصرخ صرخته العظيمة التي يعتزي فيها بنفسه «أنا عوضة»! وأمسك بمشعبه وانهاى على الجمل الرابض ضرباً شديداً على رأسه ورقبته، وكادت تتخلع قلوب الرجال الذين يشاهدون ما يجري من هول تلك الضربات وتلك الصرخات، ولم يجرؤ أحدهم على النزول ولا على الكلام مع عوضة، وهاج الجمل وماج، وهاج عوضة كذلك، وعندما همَّ الجمل بالنهوض أمسك عوضة برقبته وأقعده وشعر الناس بالخوف والإعجاب في آن واحد.. ونهض الجمل وقد سال الدم من رأسه وقاده عوضة إلى المنزل، وعند درج بيت القاسم برك الجمل، وجلس عوضة، وجاء إليه الناس، فما كادوا يصلون إليه حتى رأوه يجهش بالبكاء ويقوم إلى الجمل يقبل رأسه ويمسح الدم عنه ويبكي ويقول: «قطع الله روعي يا حُمران» وحُمران اسم الجمل .. ووقف الناس أمام مشهد رائع لهذا الرجل العجيب يتذكرون صرخاته القاسية قبل قليل، ويتأملون دموعه ووجهه الحزين الآن وشفقته التي تعبر عن شفافية روحه، فيقولون أما إنك يا عوضة لرجل عجيب!

وقف عوضة قليلاً أمام أختيه ثم قال وهو يحاول

الابتسام:

عبد الرحمن بن صالح العشماوي _____ في وجدان القرية

- أبشري يا مسفرة أنت لـ «محمد علي» مهما كلف الأمر،
كانت هذه العبارة لوحدها كفيلاً بأن تزيح الهم عن قلب
مسفرة، فعندما يعدها أخوها «عوضة» بذلك فإن هذا الوعد
متحقق لا محالة بإذن الله، ولكنها تساءلت وما موقف
أعمامي؟

ضحك عوضة قائلاً:

- أهم شيء رأي أخيك عوضة، وأخوك يقول إنك لمحمد
علي ألا يكفيك هذا؟!!

قالت وهي تبسم:

- بلى يكفيني هذا.

وعندما تأمل عوضة وجه أخته ورأى شحوبه قال عبارته
الشهيرة:

- «قطع الله روعي يا مسفرة»، أبشري بالخير وأنا أخوك.

* * *

حينما كانت مسفرة وأختها تسييران خلف أخيهما بعد
مغادرة بيت آل يحيى الذي هربت إليه منذ ثلاثة أسابيع،
كانت الشمس قد بدت على قمة الجبل الذي يطل على

في وجدان القرية _____ عبد الرحمن بن صالح العشاوي
القرية من جانبها الغربي، وكأنها قد استقرت على قمته،
لم يبق من النهار إلا وقت قصير، وعندما نظرت إلى الشمس
شعرت بانقباض خفيف، إن منظر الغروب اليوم يذكرها
بمنظر الغروب في ذلك اليوم الذي هربت فيه من بيت
أهلها بمشورة من خالتها، وإن الغروب ليذكر بالوداع،
واحمرار وجه الشمس عند الغروب يذكر باحمرار وجوه
الناس عند الحزن أو الغضب، لقد رأت قبل قليل احمرار
وجه أخيها حينما أجهش بالبكاء، كانت تسير مع أخيها
وأختها بجسدها أما قلبها فقد كان نهياً لمشاعر متناقضة،
وما أيقظها من سيطرة تلك المشاعر إلا صوت أخيها عوضة
يقول لها:

- إن عماتك وبنات أعمامك وخالاتك بأشد الشوق إليك،
لقد كان بيتنا برغم كثرة أهله فارغاً بسبب غيابك يا أخيّه.

قالت مسفرة:

- لقد كانت الدنيا كلها فارغة بالنسبة إليّ، أسأل الله ألا
يحرم الأحبة من لقاء بعضهم.

ثم ساد الصمت مرة أخرى، فما يُسمع إلا صوت
خطواتهم، وأصوات الحصى تضطرب تحت أرجلهم..

عبد الرحمن بن صالح العثماني _____ في وجدان القرية

ولاح في ذهن «مسفرة» سؤال: يا ترى لماذا تغير موقف
عوضة؟ وما الذي يجعله يقف في صف محمد علي بهذه
الصورة؟ لم يتجاوز السؤال ذهنها، فلم تكن لتجرؤ على أن
توجهه إلى أخيها، ولم تجد تفسيراً مقنعاً لتبدل موقف
أخيها، فصرفت السؤال عن ذهنها وهي تقول:
ستكشف الأيام كل شيء.

لقد تحول «بيت القاسم» إلى مهرجان لقاء أخوي حميم،
بين مسفرة وأخواتها وبنات عمها وعماتها وأعمامها، وخالتها
فاطمة التي كانت تحب ابنة أختها حباً عظيماً، وتعلم علم
اليقين أن «محمد علي» أولى بها من غيره.

ودخلت مسفرة على أحد أعمامها، وكان على فراش
المرض بل إن حالته الصحية المتردية جعلتها تشعر أنه «على
فراش الموت»..

ثلاثة أيام مضت وأهل البيت منشغلون بمريضهم، ثم
انشغلوا بعد ذلك بدفنه واستقبال المعزين الذين توافدوا من كل
مكان.

* * *